**لماذا ضعف مفهوم الدولة مقابل الجهاز البيروقراطى**

**(حالة مصر)**

**كتاب مفهوم الدولة – التمهيد والفصل السادس والسابع**

**المقدمة**

لقد قامت الدولة لتحقيق مفهومها الرئيسى من تنظيم العلاقات داخل المجتمعات من خلال إدارة العلاقات بين الأفراد وبعضها وبين الأفراد والسلطة وأيضا بين أجزاء السلطة والتى تتمثل فى المؤسسات وأجهزة الدولة، ولتحقيق هذا الدور والوظيفة والذى يعتبر دور رئيسى للدولة فقد تم إنشاء أجهزة تخدم السلطة لتحقيق هذا الهدف والتى أصبحت فيما بعد الجهاز البيروقراطى للدولة وهو يعتبر أداة السلطة لإدارة جميع العلاقات داخل المجتمع وإدارة موارده، ففى فلسفة إنشاءه يعتبر الجهاز خادم للمجتمع وأيضا يتم تطويعه لخدمة أعضاء وأفراد المجتمع، ولكن فى الحقيقة خلال الحقبة الحديثة ومنذ إنشاء الدولة القومية الحديثة للدول العربية والتى تمتلك جهازا بيروقراطيا، يتم طرح تساؤل هام وهو لماذا يتوغل الجهاز البيروقراطى على الدولة نفسها ويقضى على الهدف الرئيسى من إنشاءه ويتحول ليصبح هو الدولة فى حد ذاتها ويتم التغاضى عن باقى مقومات الدولة والذى يطغى على مفهوم الدولة الحديثة واعتبار الجهاز البيرقرواطى هو الدولة واستخدام السلطة داخل الدول العربية لهذا الجهاز لتحقيق مصالحها والقضاء على أى مظاهر أخرى للدولة.

**السبب الأول: مصالح الاحتلال**

نرى فى الأساس عند بدء بناء الدولة المصرية في عصر محمد علي والذى أوضع القواعد الرئيسية للبنة الدولة وجهازها البيروقراطى على غرار الدول الأوربية، والذى كان الهدف الرئيسى منه هو السيطرة على المجتمع وعلاقاته ومؤسساته "مثل الأزهر" وإدارة هذه العلاقات لتحقيق مصالحه وأطماعه ونظامه وأهدافه وكان أول لبنة فى هذا الجهاز هو الجيش المصرى الحديث وإنشاء منظومة داخل المجتمع لتوفير الموارد لهذا الجيش وخدمته وتحقيق أهدافه، وبناءا على ذلك كان الهدف الرئيسى لبناء الدولة ليس خدمة المجتمع ولكن تطويع المجتمع لخدمة الجيش المصرى لتحقيق مصالح النخبة الحاكمة، وعلى الرغم من إنشاء مؤسسات تظهر فى هدف إنشاءها خدمة المجتمع وتحسين أوضاعه ولكن فى الحقيقة تم تناسى المجتمع ومقومات الدولة والتركيز على بناء وتقوية الالة العسكرية للجيش المصرى والدليل على ذلك عند هزيمة الجيش المصرى على أيدى الدول الأوربية انهارت الدولة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وتم السيطرة عليها من الخارج وتقزيمها حتى تم الاحتلال المباشر لها سنة 1882.

خلال بدايات القرن العشرين أثناء الاحتلال البريطانى لمصر وقيام الاحتلال ببناء جهازا بيروقراطيا حكوميا قوميا يهدف أولا إلى السيطرة على المجتمع لضمان خضوعه لسلطة الاحتلال وعدم الخروج عنه، وثانيا إدارة موارد الدولة لتحقيق ٌأقصى استفادة لخدمة أهداف الإمبراطورية الإنجليزية وكان المسئول عن ذلك هو اللورد كرومر ويشار إلى ذلك بدولة كرومر حيث قام ببناء أجهزة قوية تدير القطر المصرى وفى بؤرتها الجهاز الأمنى حيث قام مثلا ببناء جهاز القلم السياسى والذى يعرف فيما بعد بجهاز أمن الدولة والذى هو منوط بمراقبة المجتمع بجميع أفراده ومؤسسات المجتمع المدنى وأى مبادارت تخدم المجتمع والذى توغل فيما بعد بالسيطرة على جميع المؤسسات الأخرى والتدخل فى تعيين روؤساءها مثل الجامعات والنقابات والمؤسسات البحثية ناهيك عن الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدنى. منذ ذلك الحين فقد تم بناء الجهاز البيروقراطى والذى سوف يتم استثمار امتداده فيما بعد وتقويته لخدمة السلطة الجديدة بعد انتهاء الاحتلال، ومن الملاحظ أن خلال فترة حكم محمد على واللورد كرومر والاحتلال فإن الأجهزة الأمنية والعسكرية التى تملك القوة من خلال سلطة السلاح وبسط القانون هى بؤرة الجهاز البيروقراطى وذلك يوحى بأن التركيز الأكبر تم على بناء جهاز بيروقراطيا يخدم المصالح المختلفة أكثر من وضع قواعد لدولة حديثة والبعد عن مفهوم الدولة والتقدم إلى خلق جهازا يسيطر على المجتمع والدولة.

**السبب الثانى: تثبيت الحكم**

وامتدادا لما سبق وبعد انتهاء فترة الاحتلال فقد انتقلت السلطة فى الأغلب الأعم إلى السلطة العسكرية والأجهزة الأمنية التى تم بناءها بقوة داخل المجتمع والتى بدورها انتهزت الفرصة للسيطرة على السلطة حيث أنها الأكثر تنظيما داخل المجتمع، وبدلا من أن تقيم السلطة الجديدة دولة حديثة بمفهومها الصحيح وإعطاء مجالا للأفراد لتداول السلطة لبناء دولة قوية حيث وجود فرصة كبيرة لإعادة بناء دولة جديدة بعد الاحتلال إلا أنها توجهت لتثبيت حكمها والسيطرة على السلطة، فقد قامت باستخدام الجهاز البيروقراطى واستثماره لتوسعته وتقوية نفوذه على المجتمع وباقى مكونات الدولة وقامت السلطة الجديدة بالقضاء على الأحزاب ومنع الانتخابات وغلق المجال العام ونشر أفراد الجيش المصرى داخل جميع أجهزة الدولة والشركات وتم توسعة الجهاز البيرقراطى وإدخال أكبر عدد من الناس والسيطرة عليهم وأصبح الجهاز البيروقراطى هو الدولة فى حد ذاتها ووتم إقصاء جميع المكونات الأخرى للدولة والارتكاز على الجهاز البيروقراطى واستخدامه لتقوية سلطة الحكم وتوجيه المجتمع وأصبح الجهاز البيروقراطى هو امتدادا للسلطة والظهير السياسى لها.

**السبب الثالث: شرعية الحكم**

فى حين أصبحت السلطة الحاكمة تبحث عن شرعية لحكمها المفروض على المجتمع ولإعطاء مبررات لعدم وجود تداول للسلطة داخل المجتمع وتبريرا للفشل فأصبحت تبحث السلطة عن ظهيرا سياسيا لها لتبرر حكمها بعد نفور الجميع عنها فوجدت فى الجهاز البيروقراطى ضالتها، حيث أن الجهاز يمتلك عددا من الأفراد لا بأس به وأيضا من السهل السيطرة عليه وتوجيهه، لذلك سعت السلطة دائما لتوسعة هذا الجهاز وتوظيف عددا كبيرا من الأفراد به بالرغم من عدم الحاجه إليهم كما أنشئت كيانات جديدة لاستيعاب عددا أكبر من الأفراد حتى يصبح كتلة كبيرة من المجتمع متحكم بيها مثل وزارة الإعلام "ماسبيرو" والذى يوجد بيه الالاف من العاملين داخل مبنى واحد، حيث يقدر عدد العاملين حاليا داخل الجهاز الحكومى بأكثر من 6 ملايين موظف، وتقوم السلطة باستخدامهم فى جميع الاستحقاقات الانتخابية لدعم مرشحى السلطة سواء فى البرلمان أو الرئاسة أو حتى فى المحليات، وهكذا استطاعت السلطة خلق ظهيرا سياسيا لها يشرعن سلطتها على المجتمع.

**السبب الرابع: ضعف التنظيمات الأخرى**

من الواضح داخل المجتمعات العربية أنه لا يوجد أى تنظيمات قوية تسعى إلى معارضة الحكم أو مناهضته أو تقديم أفكارا تسعى من خلالها إلى تكوين دولة ذات مفهوم واضح يأثر على أفراد المجتمع، ولسبب ضعف التنظيمات سواء بسبب بنيتها أو بسبب عدم إعطاء قرصه من قبل السلطة الحاكمة إلى تكوين أو قيام أى تنظيمات قد تؤثر فى المجتمع، فإن هذا ساعد السلطة الحاكمة أو اتاح لها الفرصة بإضعاف الدولة وتقوية وتوسيع الجهاز البيروقراطى وإنشاء شبكات داخل الجهاز تساهم بشكل كبير فى استمرار السلطة الحاكمة فى مكانها لمدد زمنية تتعدى نصف قرن.

**الخاتمة**

من المفهوم أن سلطة الاحتلال تسعى دائما إلى إضعاف المجتمع والدولة وخلق نفوذا لها وهذا واضحا سواء فى مرحلة محمد على حيث أنه ليس مصريا فهو يمارس سلطته لتحقيق أغراضه وطموحه وأيضا خلال سلطة الاحتلال الانجليزى والتى استمرت أكثر من سبعين عاما وكلا المرحلتين سعت السلطة إلى بناء وتقوية جهازا بيروقراطيا يحمى ويدعم مصالحها، ولكن من غير المفهوم أن بعد انتهاء سلطة الاحتلال وامتلاك زمام السلطة من قبل أفرادا من نفس الدولة فأنهم يستمرون فى نفس الطريق من إضعاف الدولة وتقوية الجهاز البيروقراطى لها على حساب الدولة واستخدامه لتحقيق مصالحهم مما أثر على شكل الدول العربية وعدم النجاح فى خلق دولاً مستقلة قوية تحقق مقوماتها.

**الاسم: عمرو محمود المتولى**